د .محسن يوسف*

الأصول التاريخية - الإثنية لليهود والفلسطينيين

رغم اننا يجب أن ندرس التاريخ بحيادية تامة وأن نبتعد عن الأهواء والميول السياسية والدينية والقومية، إلا أن عدد المؤرخين الذين يفعلون ذلك قليل جدا. وربما كان مؤرخو منطقة الشرق الأوسط ومؤرخو القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي أكثر المؤرخين قاطبة ميولا لتوظيف الموضوعات التاريخية لخدمة الأغراض السياسية والدينية والقومية .إن ما يكتبه الفلسطينيون والعرب والمسلمون عن تاريخ فلسطين وتاريخ اليهود وتاريخ الفلسطينيين وتاريخ الصراع العربي الإسرائيلي، يختلف كليا عما يكتبه الإسرائيليون واليهود عن نفس الموضوعات، حتى أنه يكاد يخيل للقارئ أن ما يكتبه الطرفان لا يعالج نفس الموضوع وإنما موضوعين مختلفين أو أكثر .ورغم أن ما يدرس في الجامعات والمعاهد العليا في مادة التاريخ يجب أن يكون اكثر حيادية مما يدرس في المدارس إلا أن هذا غير صحيح في منطقتنا. في المدارس، والمعاهد العليا الإسرائيلية بالكاد يدرسون أي شيء عن تاريخ العرب والمسلمين في فلسطين، ويظهر من القليل الذي يدرسونه أن العرب جاؤوا الى فلسطين مع الفتح الإسلامي العام ٦٣٦م .بشكل غزاة، وأن حكمهم للبلاد لم يزد على قرنين من الزمان .بعد ذلك خضعت فلسطين، حسب رأيهم، لحكام غير عرب مثل الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والسلاجقة والأيوبيين والمماليك والعثمانيين. في مقابل ذلك يظهر المشروع الصهيوني وإنشاء دولة إسرائيل العام ١٩٤٨ كعمل تحرير جليل وتخليص للبلاد من الغزاة المحتلين، ويتم اظهار هذا «التحرير» على أنه يمثل عودة الشعب اليهودي الى وطنه. في حين يعتبر الفلسطينيون والعرب الوجود اليهودي في فلسطين في العصر القديم غزواً واحتلالاً جائراً للبلاد، وأن تاريخهم القديم مزيف ولا يمت للحقائق التاريخية المجردة الا بشكل بسيط جدا، وعلى جميع الأحوال فإنه تاريخ هزيل بكل المقاييس .وفيما يتعلق بتاريخ الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل فإنهم يعتبرونه غزواً خارجياً وانتهاكاً لحرمة

* مدير المركز الفلسطيني للدراسات الاسرائيلية (مدار)

البلاد وتشريداً لأصحابها الحقيقيين .وأن العلاقة بين الإسرائيليين الجدد باليهود القدامى علاقة واهية لا تستند الى حقائق تاريخية صلبة.

سأحاول في الصفحات القليلة القادمة نفض الغبار عن ما خبأه لنا التاريخ على مر حوالي ٤٠٠٠ سنة، بهدف الكشف عن الأصول التاريخية - الإثنية لكل من الفلسطينيين واليهود، وسأحاول أن افعل ذلك بموضوعية وحيادية وتجرد قدر المستطاع.

في البداية علي أن أنفي العلاقة العرقية بين الفلسطينيين الحاليين بالفلستيين القدامى (التفرقة بالتسمية : التاء أو الطاء مقصودة للتفريق بين المجموعتين). رغم أن أحدا من المؤرخين العرب أو الأجانب أو حتى الإسرائيليين لا يربط بين الفلسطينيين الحاليين والفلستيين القدامى إلا ان بعض الناس غير المتخصصين بالتاريخ يعتقدون أن الفلسطينيين الحاليين هم نسل الفلستيين القدامى .فيما يتعلق بهذا الشأن فإن الفلستيين القدامى هم عبارة عن مجموعة من القبائل أو المجموعات العرقية التي غزت مصر وسواحل بلاد الشام في القرن الثالث عشر قبل الميلاد .وكان اسم احدى تلك القبائل أو المجموعات فِلِست أو بِلِست أو تسمية أخرى شبيهة بذلك .بعد ذلك عُمّم هذا الإسم على كل تلك القبائل .ومن الجدير ذكره أن الآثار الفرعونية القديمة قد أطلقت على هذه المجموعات أسم شعوب البحر ، وقد درج على هذا المنوال علماء الآثار والمؤرخون المحدثون . التسمية الأخيرة (شعوب البحر) هذه تشير الى أصل هذه المجموعات، بمعنى أنهم غزوا المنطقة من سواحل البحر الأبيض المتوسط .التوراة تشير الى أنهم جاؤوا من البحر المتوسط من جزيرة كريت حتى أنها أطلقت على منطقة شمال النقب اسم النقب الكريتي .علماء الآثار والمؤرخون المحدثون لا يحددون أصل هذا الشعب بجزيرة كريت وحدها، وإنما يستعملون صيغة أكثر عمومية، ويقترحون منطقة بحر إيجا (ليس بعيدا عن جزيرة كريت) أصلا لهذا الشعب.

الوثائق المصرية القديمة تشير الى أن المصريين صدوا هجوم شعوب البحر هؤلاء وطردوهم الى الشواطئ الجنوبية من بلاد الشام حيث استقروا هناك بموافقة مصر التي كانت تحتل بلاد الشام .وعلى ما يظهر أنهم أصبحوا فيما بعد عملاء لمصر الفرعونية .أما المنطقة التي سكنوا بها فهي الشريط الساحلي الممتد من أشدود في الشمال وحتى مدينة غزة في الجنوب، ومن ساحل البحر المتوسط في الغرب حتى سفوح الجبال في الشرق .وكانت أعظم مدنهم غزة وعسقلان وأشدود وغات (الى الشرق من عسقلان) وإكرون (الى الشمال الشرقي من أشدود). باختصار شديد فإن مساحة المنطقة التي استوطن بها الفلستيون والتي أُطلق عليها اسم فلستيا كانت صغيرة جدا حتى أنها بالكاد تزيد على مساحة قطاع غزة في ايامنا الحالية .ولكن الفلستيين كانوا محاربين أشداء فوسعوا حدود بلادهم على حساب المناطق المجاورة، حتى أننا نجدهم يحاربون الإسرائيليين في مخماس الواقعة الى الشمال من مدينة القدس، ويحاربون الملك الإسرائيلي الأول- شاؤول في جبال الجلبوع الواقعة بين جنين وبيسان.

عند تفحص معالم الآثار التي تركها الفلستيون في المنطقة نجدها لا تشبه آثار الكنعانيين أو الفينيقيين أو الفراعنة المصريين أو الآشوريين العراقيين، الأمر الذي يؤكد أنهم كانوا غرباء عن المنطقة ,ومما يؤكد هذه الحقيقة الأسماء التي كانوا يتسمون بها والتي تشير الى أنهم لم يكونوا ساميين مثل الكنعانيين والفينيقيين والآشوريين والعرب واليهود، وإنما تشير أسماؤهم الى انهم كانوا ينتمون الى أصول هندو أوروبية مثل باقي سكان منطقة بحر إيجة وكريت واليونان والأناضول .بعد مرور فترة قصيرة نسبيا على وجودهم في فلستيا اصبحنا نجد آثارهم تشبه آثار الكنعانيين الساميين جيرانهم، واصبحنا نجد الآلهة الكنعانية تعبد أيضا في فلستيا ووجدنا ملوكا من ملوكهم يحملون أسماء كنعانية .والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ماذا حدث ولماذا هذا التغيير؟ الإجابة على هذا السؤال تكمن في احتمالين رئيسيين وهما: إما ان يكون الفلستيون قد تأثروا بشكل كبير بالسكان الكنعانيين، واقتبسوا منهم أسماء وآلهة كنعانية وطرق صناعة الحاجيات بأساليب محلية كنعانية، وإما ان يكون الكنعانيون يسكنون بينهم وبعد مرور الوقت اصبح هناك تزاوج بين المجموعتين العرقيتين، ومن ثم اصبح الكنعانيون يلعبون دورا مركزيا في حياة فلستيا حتى اصطبغت هذه المنطقة في نهاية المطاف بصبغة كنعانية .وهناك امكانية ثالثة وهي أن العاملين المذكورين أعلاه مجتمعين قد كانا السبب الرئيسي في إحداث ذلك التغيير. (Oxford Encyclopedia، الجزء الرابع، ص٣١٠ - ٣١٣).

يظهر من هذا السرد التاريخي السريع أن المنطقة الجغرافية التي كان يطلق عليها اسم فلستيا منذ بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد

حتى أواسط الألف الأول قبل الميلاد، أي حتى القرن الخامس قبل الميلاد، هي منطقة الساحل الواقعة بين غزة وأشدود .بعد ذلك التاريخ وربما حتى قبله اصبحت هذه التسمية تعني مناطق جغرافية أوسع من المنطقة المذكورة، حتى أصبحت تعني كل منطقة الساحل .وفي العهد اليوناني وعلى وجه الخصوص في العهد الروماني، أصبحت كلمة فلسطين تعني ليس فقط المنطقة الساحلية، وإنما أيضا المنطقة الجبلية ومنطقة الغور وحتى الجبال الغربية من شرق الأردن .في العهد الروماني والبيزنطي قسمت فلسطين الى ثلاث ولايات :الأولى وكانت تسمى فلسطين الأولى، وكانت تضم وسط فلسطين من مرج ابن عامر شمالا حتى بئر السبع جنوبا، والثانية كان يطلق عليها فلسطين الثانية وكانت تتكون من مرج ابن عامر والجليل، أما الثالثة فكان يطلق عليها اسم فلسطين الثالثة وكانت تضم منطقة النقب الواقع الى الجنوب من رفح وبئر السبع. (الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ٣، ص٤٧٥).

باختصار شديد :الفلستيون كانوا غرباء عن المنطقة ,عاشوا في منطقة محدودة وصغيرة جدا من جنوب شاطئ فلسطين، ومع مرور الزمن تزاوجوا مع الكنعانيين واختلطوا وتأثروا بهم لدرجة أنهم ذابوا في المحيط الكنعاني بشكل كامل، ولم يتركوا وراءهم الا اسم فلستيا الذي اصبح على مر العصور يطلق على كل المنطقة الواقعة الى الغرب من نهر الأردن وعلى المنطقة الغربية من شرق الأردن .أما فلسطين في الفترات الاسلامية فهي تلك المنطقة التي يحدها من الشمال مرج ابن عامر ومن الجنوب مدينة رفح، وكانت عاصمتها في القرون الأولى من التاريخ الإسلامي مدينة الرملة .في العام ١٩١٧ احتلت بريطانيا بلاد الشام وقسمت المنطقة بالإتفاق مع فرنسا الى اربعة كيانات سياسية كانت فلسطين احداها .أما الحدود الحديثة لفلسطين فهي من صنع بريطانيا التي حددت هذه الحدود بين الأعوام ١٩١٧ – ١٩٢١.

والسؤال المطروح هو :ما هي العلاقة الإثنية بين الفلسطينيين المعاصرين والفلستيين القدامى ؟ في الحقيقة العلاقة بين الطرفين ضعيفة جدا وتكاد لا تذكر .فالفلستيون لم يتعدوا كونهم حفنة من الأجانب الذين استوطنوا في جانب صغير من فلسطين، وقد امتزجوا مع مرور الزمن بالسكان المحليين الكنعانيين وذابوا بهم .أنهم بذلك لم يختلفوا بتاتا عن مئات الحفنات من شعوب العالم الذين احتلوا فلسطين أو استقروا بها بشكل افراد أو جماعات ومن ثم امتزجوا بالسكان المحليين وذابوا بهم .أما التسمية «فلسطينيين» فهي مرتبطة حقا بالاسم القديم فلستيا، ولكن لا علاقة لهذا الأمر بالجانب الإثني.

تمثال الآلهة بعل من القرن الثالث عشر قبل الميلاد

بالنسبة لسكان فلسطين خلال الفترات التاريخية السحيقة فإننا لا نعرف عنهم الا القليل جدا .إننا نعرف بأن البشر سكنوا فلسطين قبل حوالي مليون سنة (Oxford Encyclopedia، ج٤، ص٢٠٧)، ولكننا لا نعرف، على سبيل المثال، اللغة التي استخدموها في حياتهم اليومية .معرفتنا بشعوب فلسطين اصبحت تتضح بشيء من التفصيل منذ الألف الثالث قبل الميلاد .خلال تلك الألفية والألفية التي تلتها سكن فلسطين الشعب الكنعاني الذي كان يتكلم لغة سامية شبيهة باللغات العربية والعبرية والفينيقية والآرامية والآشورية والبابلية .وعلى هذا الأساس بامكاننا أن ندعي، ولو بشيء من الإجحاف بحق الشعوب التي سبقتهم، أن الكنعانيين هم سكان فلسطين الأصليون.

بالنسبة لليهود القدامى فغالبية معلوماتنا عنهم مستقاة من التوراة التي لم تتقاطع أحداثها مع اللقى الأثرية إلا منذ القرن التاسع قبل الميلاد .وعلى جميع الأحوال فإن غالبية علماء الآثار والمؤرخين يشكون

بتأريخية الفترة التي سبقت القرن التاسع قبل الميلاد، هذا ناهيك عن عدم دقة التواريخ التي زودتنا بها التوراة .وعليه فإن معلوماتنا عن الفترة التي سبقت القرن التاسع قبل الميلاد مشكوك بصحتها.

حسب الرواية التوراتية يعود تاريخ العبرانيين الى سيدنا ابراهيم الذي كان مواطنا في مدينة أور (في جنوب العراق ليس بعيدا عن موقع مدينة البصرة الحالي) والذي هاجر الى بلاد كنعان (فلسطين) ربما بين السنين ٢٠٠٠ و ١٨٠٠ق م، وقد اطلق عليه وعلى جماعته اسم العبرانيين .وبعد أن تكاثر نسل ابراهيم في جنوب كنعان هاجروا الى مصر ليمكثوا بها عدة قرون .وإذا صحت هذه الرواية فإن هذه الهجرة تمت عندما احتل الهكسوس مصر خلال الفترة الزمنية١٧٥٠ –١٥٦٠ ق م .علماً أن الهكسوس الذين كانوا خليطا من شعوب هندو أوروبية وسامية هاجموا مصر، من كنعان .ثم تعلمنا التوراة أنه تم استعباد العبرانيين في مصر الأمر الذي أدى الى هربهم من هذه البلاد الى كنعان (إذا صحت هذه الأحداث فإنها ربما تمت خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد، أي: أنها ربما سبقت طرد الفلستيين من مصر واستيطانهم في فلستيا بفترة وجيزة). التوراة تشير أيضا إلى أن احتلال العبرانيين لكنعان قد تم عن طريق الحروب والقتل والدمار، إلا أنها غير جازمة بهذه الحقيقة .في أرض كنعان عاشت قبائل (أسباط العبرانيين (كلمة اسباط مفردها سبط مشتقة من الكلمة العبرية شيْبِط التي تعني قبيلة) حياة قبلية الى جانب الكنعانيين الذين كانوا يعيشون حياة استقرار في القرى والمدن .بعد حوالي قرنين من الحكم القبلي توحد الإسرائيليون وأسسوا المملكة الموحدة التي اعتلى عرشها شاؤول ومن ثم داود ومن بعده ابنه سليمان الذين ربما حكموا من سنة ١٠٢٠ق م الى سنة ٩٢٨ق م ...(الياس شوفاني، ص٧٦-٩٦) بعد عهد سليمان انقسمت المملكة اليهودية الى مملكتين :اسرائيل في الشمال وكانت عاصمتها السامرة، ويهودا في الجنوب وكانت عاصمتها أورشليم .بعد حكم ١٥ ملكا على مملكة اسرائيل دمر الآشوريون العام ٧٢٢ ق م مدينة السامرة وقضوا على مملكة اسرائيل وسبوا قادتها الى بلاد آشور .أما يهودا فخضعت لحكم الآشوريين ومن بعدهم البابليين حتى قضى عليها نبوخذنصر البابلي العام ٥٨٦ ق م عندما هدم اورشليم وهيكل سليمان وسبى قادتها الى بابل .وبعد أكثر من نصف قرن انتصر الفرس على البابليين فسمحوا لليهود بالعودة الى يهودا وبإعادة بناء الهيكل من جديد .بعد الفرس احتل اليونانيون ومن بعدهم الرومان البلاد .وعلى أثر تمرد يهودي دمر الرومان أورشليم وهدموا الهيكل" الثاني» العام ٧٠ ميلادي، وتم سبي اعداد كبيرة من سكان اورشليم ويهودا الى روما.

إن ما يهمنا من هذا الأمر هو التركيبة الأثنية لسكان فلسطين. فإذا كان سكان فلسطين في الألف الثالث قبل الميلاد كنعانيين ساميين، فهل تغيرت هذه التركيبة خلال الألف الثاني والألف الأول قبل الميلاد بسبب هجرة ابراهيم لكنعان وهجرة نسله الى مصر، ومن ثم عودتهم الى أرض كنعان، ومن ثم اعمال القتل والسبي التي نفذها الآشوريون والبابليون والرومان بالإسرائيليين واليهود ؟ .التوراة تشير الى أن هجرة سيدنا ابراهيم كانت هجرة محدودة من الناحية العددية، بحيث هاجر معه ابناء عائلته النووية فقط، وهؤلاء كانوا يعدون على الأصابع وليس بالعشرات والمئات .فإذا كان الوضع كذلك فإن هجرة من هذا النوع لا تؤثر بتاتا على التركيبة الإثنية لكنعان .الى جانب ذلك، وهناك إشارات كثيرة لذلك، تشير التوراة الى أن العبرانيين هؤلاء تزاوجوا مع الكنعانيين المحليين، لذلك من الصعب الحديث عن بقاء العبرانيين كمجموعة عرقية تختلف عن باقي السكان الكنعانيين .وإذا افترضنا أن هذه المجموعة قد تكاثرت في كنعان ومن ثم في مصر بشكل ضخم وملفت للإنتباه، فإن عددهم لا يمكن أن يصبح عند عودتهم أو احتلالهم لكنعان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد كبيرا جدا، بحيث يغير التركيبة الإثنية للبلاد بشكل جذري.

إذا افترضنا أن العبرانيين قتلوا غالبية، إن لم يكن جميع، الكنعانيين عند احتلالهم البلاد، يكونون فعلا قد احدثوا تغيرا جذريا في التركيبة الإثنية للسكان، ولكن الدلائل المستقاة من التوراة نفسها والتي بالغت في الحديث عن الحروب والقتل تشير بطرق غير مباشرة الى أن القتل الجماعي لم يحدث الا قليلا، وان الكنعانيين بقوا يشكلون غالبية السكان خصوصا في المدن والقرى، وعلى ما يظهر أن العبرانيين كانوا في تلك الفترة ما زالوا يعيشون إما حياة تنقل وإما على أطراف المدن والقرى الكنعانية .إضافة الى ذلك فان العبرانيين اخذوا، مع مرور الزمن، اسباب الحضارة وحياة الإستقرار واساليب الزراعة والحرف والتجارة عن الكنعانيين(Encyclopedia Judaica ، ج٨، ص٥٧٣ – ٥٨٠). ومما يؤكد عدم انقراض الشعب الكنعاني حتى بداية الألف الأول قبل الميلاد وجود مدن كنعانية مستقلة في فترة حكم داود (مثل مدينة أورشليم) وبعد هذا التاريخ (مثل المدن الساحلية جميعها). حتى المدن الجبلية التي خضعت للحكم الإسرائيلي

كانت تزخر بالكنعانيين والحياة الكنعانية حتى بعد تأسيس المملكة الإسرائيلية الموحدة .فقد اشارت كثير من النصوص التوراتية الى سكان كنعانيين يعبدون آلهة كنعانية في المدن «الإسرائيلية» .الى جانب ذلك فإن التوراة كثيرا ما تذكر لنا أن ملوك يهودا وعلى وجه الخصوص ملوك اسرائيل كانوا يتزوجون من نساء فينيقيات - كنعانيات الآتي كن يعبدن آلهة كنعانية .والسؤال الذي يطرح نفسه هنا :إذا لم يقتل العبرانيون الكنعانيين عن بكرة ابيهم, فماذا حدث للكنعانيين وكيف اختفوا من الوجود ؟ .الجواب المنطقي لهذا التساؤل هو أن الكنعانيين قد تخلوا عن ديانتهم مع مرور السنين والقرون وتبنوا ديانة الإسرائيليين .هذا من الناحية الدينية، أما من ناحية اللغة فإن العبرانيين قد اقتبسوا من الكنعانيين لغتهم، وهي تلك اللغة التي نطلق عليها اليوم اسم اللغة العبرية القديمة .باختصار، لقد حدث تمازج بين المجموعتين بحيث أعطى العبرانيون للكنعانيين ديانتهم، وأعطى الكنعانيون للعبرانيين لغتهم وحضارتهم.

وَضعَ المؤرخون والأثريون المحدثون نظريات عديدة متعلقة بهجرة العبرانيين أو نشوء المجتمع العبراني في كنعان وإنشاء الدولة الإسرائيلية في هذا البلد، أهمها أربع نظريات: أحدى هذه النظريات اعتمدت على الرواية التوراتية التي تمت الإشارة اليها اعلاه والتي أشارت الى احتلال العبرانيين لكنعان بالقوة العسكرية، وقد صاحب هذا الإحتلال عمليات قتل كثيرة بحق الكنعانيين، الا أن هذا القتل لم يبد الشعب الكنعاني ولم يتسبب بطردهم من البلاد.

النظرية الثانية ويطلق عليها اسم «التسرب السلمي»: وكان أول من قال بهذه النظرية الباحث الألماني البرخت آلت العام ١٩٢٥. وخلاصة ما قاله هذا الباحث ومن أيده في نظريته، أن مجموعات العبرانيين قد تسللت الى كنعان من خارجها بطريقة سلمية وببطء شديد .وبعد استقرار هذه المجموعات في فضاء الهضاب والجبال وعلى أطراف المدن الكنعانية أخذت تترابط بعضها مع بعض لتشكل قبائل ووحدات سياسية ومن ثم دولة موحدة.

النظريةال ثالثة ويطلق عليها اسم «بوتقة الانصهار»: وأول من قال بهذه النظرية هو الباحث ماكسويل ميلر في ثمانينيات القرن العشرين. كان هذا الباحث محاضرا في جامعة إموري بالولايات المتحدة الأميركية. وقد أيد هذه النظرية وطورها من بعده عدد من الباحثين .وخلاصة ما قاله هؤلاء البحاثة: إن شرائح اجتماعية محرومة كانت تعيش في منطقة السهول الكنعانية قد نزحت الى مناطق الهضاب والجبال بشكل

أسوار القدس في القرن الثالث قبل الميلاد

تدريجي خلال الفترة المعروفة باسم العصر البرونزي المتأخر أي القرون ١٤-١٢ ق م، ومع مرور السنين بدأت هذه الجماعات تترابط بعضها مع بعض لتشكل في نهاية المطاف وحدات سياسية مختلفة ومن ثم وحدة سياسية واحدة عرفت بالتاريخ باسم اسرائيل.

النظرية الرابعة ويطلق عليها اسم نظرية «الانتفاضة الداخلية»: وأول من قال بهذه النظرية الباحث ميندنهل، وقد طورها في عقد الستينيات من القرن الماضي .وخلاصة ما قاله ميندنهل إن الإسرائيليين الأوائل لم يكونوا شعبا أو مجموعة من القبائل الغريبة التي هاجمت كنعان أو تسربت اليها من الخارج، ومن ثم أنشأت بها مملكة، وإنما كانوا مجموعات من الفلاحين الكنعانيين التي لجأت الى الثورة ضد دويلات المدن الكنعانية التي كانت تتسم بالقسوة والظلم .ويعتقد أن نواة تلك المجموعات، ربما كانت مجموعة من العبيد الهاربين من «العبودية في مصر، جاءت معها بعبادة يهوة التي تبنتها الجماعات الفلاحية الثائرة» (فراس السواح ص١٦١-١٧٢).

بإمكاننا تقسيم النظريات الأربع سابقة الذكر الى مجموعتين رئيسيتين :المجموعة الأولى وتضم النظرية التوراتية ونظرية التسلل السلمي .النظريتان ادعتا أن العبرانيين كانوا مجموعة اثنية غريبة قد احتلت أو تسربت الى كنعان من الخارج .أما المجموعة الثانية والتي تضم نظرية بوتقة الانصهار ونظرية الانتفاضة الداخلية، فقد ادعت أن العبرانيين أو الإسرائيليين القدامى هم كنعانيون من أرض كنعان، كانوا يعيشون على هامش المجتمع الكنعاني وثاروا على المدن الكنعانية الغنية بسبب بؤسهم وبسبب الظلم والمعاملة السيئة التي تعرضوا لها من قبل دويلات المدن تلك .كثير من الباحثين المعاصرين أصبحوا يميلون الى أحدى نظريات المجموعة الثانية التي تقول أن أصل العبرانيين

والإسرائيليين كنعاني .والسبب الرئيسي لهذا الإعتقاد هو أن الأثريين لم يجدوا اختلافا في النواحي الحياتية والحضارية وطرق دفن الموتى وفي اللغة المستعملة يوميا، بين نهاية الفترة البرونزية (التي من المفترض أنها تمثل الحضارة الكنعانية) والفترة الحديدية الأولى (التي من المفترض انها تمثل الحضارة الإسرائيلية).

إن ما يهمنا من هذا الأمر، هو التركيبة الإثنية وما مدى التغيير الإثني الذي حدث عليها خلال هذه الفترة .فإذا صحت احدى نظريتي المجموعة الثانية من النظريات التي تكلمنا عنها أعلاه، فإنه لم يحدث أي تغيير على البنية الإثنية لسكان كنعان حيث بقوا كنعانيين حتى ولو عبدوا اله جديدا اسمه «يهوه». أما إذا صحت نظرية التسرب السلمي لعناصر غريبة الى كنعان فإن التغيير الإثني سيكون محدودا، لأننا لا نتوقع أن تكون الهجرة كبيرة جدا .وحتى لو صحت النظرية التوراتية التي قالت بأن الإسرائيليين غرباء عن أرض كنعان هاجروا اليها وقتلوا الآلاف من سكانها، فإن التغيير والتأثير الإثني بقي محدودا .ومما يؤكد محدودية التغيير الإثني ما ذكرناه سابقا، وهو أنه لم يحدث تغيير حضاري ولغوي خلال الفترة الانتقالية بين العصر البرونزي والعصر الحديدي (١٤٠٠ – ١٠٠٠ ق م). وهنا لا بد من الإشارة الى أن غالبية، إن لم يكن جميع، سكان كنعان اصبحوا مع مرور الزمن يعبدون الإله يهوه، ويطلق على لغتهم اللغة العبرية، رغم أنها كانت مجرد لهجة من اللهجات الكنعانية، وأصبح يطلق على السكان اسم إسرائيليين بعد أن كان يطلق عليهم اسم كنعانيين.

بعد هذه الفترة لم تحدث أحداث مهمة ذات صلة بالتركيبة الإثنية حتى نهاية القرن الثامن عشر وبالتحديد العام ٧٢٢ ق م، عندما احتلت الدولة الآشورية مملكة إسرائيل وهدمت عاصمتها وسبت حسب تقديرات التوراة ٢٧٢٩٠ نسمة من سكانها الى البلاد الآشورية، ونقلت بضع آلاف من سكان المملكة الآشورية الى فلسطين ليحلوا محل الإسرائيليين الذين تم سبيهم (سامريو نابلس الحاليون هم بقايا تلك المجموعة، وبقايا سكان مملكة اسرائيل التي تم القضاء عليها العام ٧٢٢ ق م). نعناعة ٢٤٢ – ٢٤٥ Encyclopedia Judaica، ج٦، ص١٠٣٤ – ١٠٣٥). الرقم الذي ذكرته التوراة المتعلق بعدد الإسرائيليين الذين تم سبيهم مبالغ به حسب تقدير غالبية المؤرخين، ولكن بسبب عدم وجود مصدر آخر يؤكد أو يدحض هذا الرقم، لا يسعنا إلا أن نقدر عدد الذين هجروا من والى فلسطين بالآلاف وليس بعشرات الآلاف، الأمر الذي يقودنا للاعتقاد بأن الحركة السكانية هذه، أثرت بشكل ما على التركيبة الإثنية للسكان .ومما يؤكد ما نقوله ان الحياة العامة والمعالم الحضارية للسكان واللغة المستعملة في الحياة اليومية في فلسطين بقيت على ما كانت عليه، حتى أن العناصر الأجنبية (السامريون) الذين تم نقلهم الى فلسطين، قد اندمجوا في نهاية المطاف بالمجتمع المحلي وتقبلوا ديانة السكان المحليين وتركوا ديانتهم ولغتهم التي جاؤوا بها .ليس هذا فحسب بل أخذوا بمرور الزمن بالإدعاء بأنهم هم اليهود الأصليون وأن التوراة التي بحوزتهم هي التوراة الأصلية والصحيحة، وأن سيدنا موسى قد تكلم مع الرب على جبل جرزيم في نابلس، وليس على جبل سيناء كما يدعي اليهود الآخرون.

الأحداث اللاحقة التي كان لها تأثير ما على التركيبة الإثنية لسكان فلسطين حدثت في بداية القرن السادس قبل الميلاد وعلى وجه التحديد في السنوات ٥٩٨ – ٥٨٦ ق م عندما ثارت مملكة يهودا على الحكم البابلي (الكلداني). فقد أخمد البابليون بقيادة الملك نبوخذنصر ثورة مملكة يهودا بقوة .وتقول التوراة بأن هذا القائد هدم هيكل سليمان وهدم وحرق مدينة أورشليم وسبى آلاف اليهود، وعلى وجه الخصوص قادتهم، الى بابل .وقد قدرت التوراة (سفر إرميا) عددهم بـ ٤٦٠٠ شخص .وهناك من ادعى من بين المؤرخين أن هذا العدد يمثل الرجال فقط وليس جميع السكان، لذلك قدروا عدد جميع المنفيين بحوالي ١٤٠٠٠ – ١٨٠٠٠ شخص (نعناعة ٢٥٥، Encyclopedia Judaica، ج٦، ص١٠٣٧ – ١٠٤٠). ولكن تأثير هذا السبي على التركيبة الإثنية للسكان كان سطحيا جدا، إن لم يكن عديم التأثير، وذلك لسببين رئيسيين:

١ – أن الشيء الذي يغير في التركيبة الإثنية لمجموعة سكانية معينة هو دخول عنصر عرقي جديد على البلاد، وليس هجرة أو تهجير نسبة معينة من السكان الى خارج البلاد .وفي هذه الحالة تم تهجير يهود الى خارج البلاد ولم يدخل اليها أي عنصر أجنبي.

٢– على جميع الأحوال فإن الفرس الذين انتصروا على الدولة البابلية العام ٥٣٩ ق م قد سمحوا لليهود بالعودة لوطنهم .وتعلمنا التوراة أن نسبة كبيرة ممن تم سبيهم قد عادوا الى يهودا.

باختصار شديد فإن السبي البابلي الذي تكلمت عنه التوراة بتوسع مقارنة مع السبي الآشوري الذي تكاد لا تذكره، كان عديم التأثير على البنية الإثنية للسكان.

خضعت فلسطين بعد هذا التاريخ للاحتلال الفارسي الذي أعقبه احتلال يوناني - هيليني ومن ثم احتلال روماني .وكما عودنا التاريخ فإن أي احتلال وحكم أجنبي لأية دولة لا بد أن تصاحبه هجرة افراد أو مجموعات (جنود وحكام وموظفون وتجار وحجاج ومنتفعون) من البلاد الفاتحة للبلاد المفتوحة .وفيما يتعلق بمصير هؤلاء الأفراد أو تلك المجموعات، فبعضهم كان يندمج بالمجتمع العام، وبعضهم الآخر كان إما يقتل في نهاية المطاف أثناء الانتفاضات والثورات والحروب، أو أنه كان يتم طردهم الى خارج البلاد .بالنسبة للمندمجين، ففي غالب الأحيان كانوا يندمجون كليا في المجتمع، حتى انهم كانوا ينسون تراثهم وحضارتهم ويتأقلمون ويتبنون حضارة وتراث وديانة ولغة السكان المحليين .هذا ما حدث عند الاحتلال الآشوري والبابلي والفارسي والروماني .في بعض الحالات تتغلب حضارة وتراث وديانة ولغة الفاتحين، رغم قلتهم العددية، على حضارة وديانة ولغة المغلوبين على أمرهم رغم أنهم الأكثرية، وهذا ما حدث في أعقاب الفتح الإسلامي لفلسطين وغيرها من مناطق الشرق الأوسط.

كان للاحتلال اليوناني - المقدوني لفلسطين تأثير ما على سكان فلسطين من الناحية الإثنية والحضارية أكثر من الاحتلال الفارسي والآشوري .فقد استوطن عدد كبير نسبيا من اليونانيين والمقدونيين في المدن الفلسطينية، وكانت حضارتهم قوية لدرجة أن كثيرا من السكان المحليين وعلى وجه الخصوص سكان المدن قد تأقلموا معها وتبنوها. في كثير من المدن وجدنا السكان يتركون ديانتهم اليهودية ولغتهم الآرامية وأسماءهم العبرية ليتبنوا الديانة واللغة والأسماء اليونانية. ولكن الحضارة والديانة واللغة اليونانية، كاد تغلغلها يقتصر على المدن فقط، ولم يصل الى الريف الفلسطيني والشامي إلا بشكل سطحي جدا، الأمر الذي أدى الى تراجع هذه الحضارة بعد افول نجم الدولة اليونانية مباشرة (عبد الوهاب المسيري، ج٤، ص٢٠٧ - ٢٠٨). ومما ساعد على عودة الحضارة والديانة واللغة القديمة للهيمنة من جديد، أن أعداداً كبيرة من العناصر اليونانية والمقدونية والسكان المحليين الذين اندمجوا في الحضارة الهيلينية، قد هاجروا من فلسطين الى البلاد التي كانت تخضع للاحتلال اليوناني وفيما بعد للاحتلال الروماني، وعلى وجه الخصوص الى بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط .هذا الى جانب مقتل أعداد لا بأس بها من العناصر الأجنبية أو العناصر التي «تهلينت» أثناء الثورات والحروب .وإنه من المنطقي أن ندعي أن أعداداً من الذين تهلينوا وحتى من العناصر الأجنبية التي بقيت تسكن فلسطين بعد أفول نجم الهيلينية، قد اندمجوا من جديد بالديانة اليهودية وتكلموا اللغة الآرامية.

بالنسبة للحكم الروماني فإنه لم يلغ الحضارة الهيلينية بل تبناها الى حد كبير، وبما أن الرومان قد جعلوا كل منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وحدة سياسية واحدة، فإن التنقل في هذه المنطقة قد اصبح يسيرا ما شجع أعداد كبيرة جدا من سكان فلسطين، وعلى وجه الخصوص اليهود منهم، على الهجرة لبلاد حوض البحر المتوسط بمحض إرادتهم .اما الأسباب التي دعت اليهود أو سكان فلسطين للهجرة بأعداد كبيرة الى دول المنطقة، فتتلخص في سببين رئيسيين وهما :أن الفرص الاقتصادية، وعلى وجه الخصوص الفرص التجارية في روما والإسكندرية وغيرها من المراكز الحضارية في منطقة المتوسط ,كانت افضل بكثير من تلك الفرص التي كانت متوفرة في فلسطين، كذلك الحال عانت فلسطين وبلاد الشام كثيرا من سوء الأوضاع الأمنية بسبب الحروب والثورات المتواصلة .ومن الجدير ذكره أن الهجرة اليهودية الطوعية هذه الى دول وولايات البحر المتوسط لم تكن الأولى أو الأخيرة في تاريخ هذا الشعب، حيث سبق هذه الهجرة هجرة مماثلة الى العراق وفارس وبلاد الشرق أثناء الحكم البابلي والفارسي، حتى أن أعدادا كبيرة ممن أجلاهم الآشوريون والبابليون لم يعودوا الى أورشليم والى فلسطين عندما سمح لهم الفرس بذلك .ومما يلفت النظر أن اليهود قد حلوا، منذ الفترة اليونانية - الرومانية، محل الفينيقيين والآراميين كأعظم تجار في منطقة حوض البحر المتوسط، ومنطقة الشرق الأوسط.

في فترة السيد المسيح، عاش غالبية السكان اليهود خارج يهودا أو فلسطين .فقد قدرت بعض المصادر نسبة اليهود الذين استقروا، أو على وجه الدقة انتشروا، خارج يهودا أو فلسطين، أربع الى ستة اضعاف عددهم في فلسطين (دائرة المعارف العبرية العامة، ٥٦٧ - ٥٦٨) .إن الإشارة الى عدد اليهود أو قوتهم في مدينة روما، قد تعطي القارئ فكرة معينة عن انتشار هؤلاء الناس خارج فلسطين وفي منطقة حوض البحر المتوسط .فتذكر المصادر أن السياسي الروماني الشهير شيشرون قال العام ٥٩ ق م. «إن اليهود في روما طائفة جديرة بأن يخطب ودّها»، ويضيف أن «على المرء أن يتحدث همسا لكيلا يسمعه الا القضاة، ذلك بأن روما لا تعدم أشخاصا على استعداد ليثيروا عليه اليهود، ومعهم أبرز رجال الدولة» .ومصدر آخر يذكر أن السلطات في روما كانت تتفادى مواجهة اليهود بما يكرهون، حتى أن الإمبراطور

طيباريوس اراد الحد من شوكتهم فجند العام ١٩ م ٤٠٠٠. جندي منهم بدعوى أنه يريد ان يحارب بهم اللصوص في جزيرة صقلية، في حين كان هدفه الحقيقي من ذلك التجنيد التخلص منهم وابعادهم عن عاصمة الإمبراطورية .وفي العام ٤٩ م .اصدر الإمبراطور كلوديوس مرسوما يقضي بنفي اليهود الى خارج روما .أما الفيلسوف الروماني سِنِكا والذي كان يكره اليهود فإنه يقول عنهم: «إن عادات ذلك الجنس الملعون قد انتشرت بصورة مذهلة ... فقد وضع المغلوب شرائع للغالب» (نعناعة ص ٤٠٧ -٤١٥). ولكن من أين جاء كل هؤلاء اليهود علما أن هذا العدد الضخم منهم وجد في منطقة حوض المتوسط قبل حدوث السبي الروماني العام ٧٠م.؟

في العام ٧٠م . وعلى أثر ثورة يهودية على الحكم الروماني هاجم الرومان مدينة أورشليم وعاثوا فيها فسادا ودمروا الهيكل الثاني وسبوا مئات وربما الآلاف من القادة والسكان اليهود الى روما .كثير من المصادر اليهودية التي تحدثت عن هذه الحادثة وصفتها بأنها كانت السبب الرئيس في انتشار اليهود في إيطاليا وفي أوروبا، إلا أن هذا الإدعاء لا يعتمد على حقائق تاريخية، حيث أن مئات آلاف اليهود بل الملايين منهم كانوا قد تواجدوا في حوض البحر المتوسط قبل هذه الواقعة . كذلك الحال فإن بعض المصادر اليهودية تتحدث عن هذه الحادثة وكأنها قد أفرغت فلسطين من سكانها وعلى وجه الخصوص السكان اليهود .وهذه المقولة أيضا غير دقيقة حيث تشير المصادر الأخرى الى أن غالبية سكان فلسطين قد بقوا في بلادهم ولم يقتل أو يهجر منهم إلا نسبة صغيرة .فقد أشارت على سبيل المثال «دائرة المعارف العبرية العامة واليهودية والأرض الإسرائيلية» الى أن غالبية سكان فلسطين وعلى وجه الخصوص منطقة يهودا كانوا بعد العام ٧٠م يهودا، وكانت نسبتهم لمجموع السكان حوالي الثلثين، «وقد عاش إلى جانبهم أقلية كانت تتماثل أو على الأقل تؤيد الرومان والحضارة الهيلينية» (دائرة المعارف العبرية، ج٦، ص٥٦٧، وعبد الوهاب المسيري، ج٤، ص٢١٧).

في الأعوام ١٣٢ – ١٣٥ قام اليهود بثورة جديدة بقيادة باركوخبا على الرومان، فعاد الرومان لإخماد الثورة فهدموا أورشليم وبنوا مدينة إيليا كابتولينا مكانها ومنعوا اليهود من السكن بها .وفي أثناء تلك الثورة قتلت أعداد كبيرة من السكان اليهود وبيع عشرات الآلاف منهم عبيدا .ولكن أكثر العبيد الذين بيعوا، بيعوا في الخليل وغزة، بمعنى آخر إن سكان البلاد لم يخرجوا منها (Encyclopedia Judica، جج٩، ٢٣٧، ٢٤٧ – ٢٤٨.) نفس الوقت لم تدخل الى فلسطين خلال هذه الفترة عناصر إثنية غريبة .وهذا يعني أنه لم يطرأ أي تغيير مهم على التركيبة الإثنية للبلاد خلال هذه الأحداث، رغم أعداد القتلى الكبيرة.

لقد كانت ثورة باركوخبا الحدث السياسي والعسكري البارز الأخير الذي قام به اليهود بفلسطين .وكما تعوّد اليهود على التنقل من مكان الى آخر بحثا عن الرزق والمال والتجارة، استمرت هجرتهم الطوعية من فلسطين الى البلاد الرومانية وحوض البحر المتوسط خلال ما تبقى من الفترة الرومانية وخلال الفترة البيزنطية ٣٣٢ – ٦٣٦م .خلال هذه الفترة الطويلة لم تحدث أحداث مهمة من شأنها أن تؤثر على التركيبة الإثنية لسكان البلاد، أي: لم يتم ادخال عناصر غريبة لفلسطين بأعداد كبيرة .ولكن هذه الفترة كانت ذات شأن كبير فيما يتعلق بالجانب الديني للسكان، حيث أخذوا يتركون ديانتهم اليهودية ويدينون بالنصرانية التي أصبحت الديانة الرسمية للدولة الرومانية الشرقية (أي الدولة البيزنطية) منذ بداية القرن الرابع الميلادي.

عند الفتح الإسلامي لفلسطين وبلاد الشام العام ٦٣٦م، كان غالبية سكان فلسطين يدينون بالدين المسيحي، حيث قدرت نسبة المسيحيين بين ثلثين وثلاثة أرباع مجموع السكان .أما الثلث أو الربع المتبقي فكانوا من اليهود .بالنسبة للسكان اليهود انقسموا الى مجموعتين :السامريون واليهود، وعلى ما يظهر أن نسبة السامريين لمجموع اليهود تراوحت بين الثلث والنصف (الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، ج٢، ص١٨٤ – ١٨٥، ١٩٥ – ١٩٦). من الواضح أن الوجود المسيحي في فلسطين قد حدث عن طريق التنصر وليس عن طريق هجرة النصارى الى فلسطين، لأن المصادر لم تتحدث قط عن هجرة نصارى الى هذا البلد في تلك الفترة .وبهذه المناسبة علينا أن نتذكر أن الديانة المسيحية قد ابتدأت في فلسطين، وعلينا أيضا ان نتذكر أن السيد المسيح هو فلسطيني، وفي نفس الوقت كان يهوديا وكانت مهمته في الأساس إصلاح الدين اليهودي، وعليه فإن جميع المسيحيين الأوائل وجميع تلاميذ السيد المسيح كانوا في الأساس يهودا فلسطينيين.

هناك قبائل عربية من شرق الأردن والصحراء السورية هاجرت قبل الإسلام الى أطراف فلسطين في النقب ولم تتغلغل داخل الأراضي الفلسطينية الا قبيلة عاملة التي تغلغلت في الجليل .بالنسبة لديانة هذه القبائل عند هجرتها الى شرق الأردن وفلسطين كانت الوثنية، ولكنها

مع مرور الزمن أصبحت تدين بالنصرانية (خليل عثامنة ٥ – ١١) . ولكن العرب الذين تنصروا لم يشكلوا إلا جزءا بسيطا من السكان وتنصرهم لا يفسر وجود أعداد كبيرة جدا من المسيحيين في البلاد .بناءً على ذلك لم يبق أمامنا إلا أن نستنتج أن غالبية يهود فلسطين قد تنصروا مع مرور الزمن حتى أصبح عدد المتنصرين أكثر من هؤلاء الذين بقوا على دين آبائهم وأجدادهم .وكتب التاريخ مليئة بالشواهد التي تشير الى تنصر اليهود.

احتلال الرومان لمدينة القدس. لوحة من القرن التاسع عشر

فيما يتعلق بمسلمي فلسطين، فكثير من المؤرخين الإسرائيليين يربطونهم بهجرة العرب التي صاحبت الفتح الإسلامي للبلاد .بمعنى آخر انهم يريدون القول أن أصل عرب فلسطين، وعلى وجه الخصوص المسلمين منهم يعود للفتح العربي الإسلامي الذي يعتبرونه غزواً أجنبياً لفلسطين، وأن أصل هؤلاء العرب المسلمين يعود للقبائل العربية التي كانت تقيم في شبه الجزيرة العربية. وعلى هذا الأساس نجدهم في حالات عديدة يطالبون العرب المسلمين الفلسطينيين «بالعودة» الى وطنهم الأصلي، وهو شبه الجزيرة العربية. في الحقيقة إن هذه مغالطة كبيرة ولا يصرح بها إلا مؤرخ هاو وذو ميول سياسية واضحة، وليس مؤرخاً متخصصاً يتمتع بالحيادية ولو بنسبة بسيطة .إننا لا ننكر أنه قد صاحب عملية الفتوحات الإسلامية هجرة عربية إسلامية من شبه الجزيرة العربية الى بلاد الشام بشكل عام وفلسطين بشكل خاص، ولكن تلك الهجرة كانت محدودة جدا. حتى شيخ المستشرقين اليهود – برنارد لويس يوافق (ولو بطريقة غير مباشرة) على محدودية تلك الهجرة .فهذا المؤرخ الكبير رغم تحيزه للصهيونية فإنه توصل لنتيجة مفادها أن عدد العرب الذين صاحبوا عملية الفتوحات الإسلامية، والذين لحقوا بهم، واستقروا في بلاد الشام منذ بداية الفتح الإسلامي وحتى نهاية الدولة الأموية لم يزد عن ربع مليون شخص (Bernard Lewis، ص٦٩). وبما أن برنارد لويس لم يعتمد في مقولته هذه على معلومات إحصائية فإن تقديراته هذه تبقى مجرد تقديرات، ربما قاربت الحقيقة وربما ابتعدت عنها زيادة أو نقصاناً .في اعتقادي ان هذه التقديرات إما أن تكون قريبة من الصحة، وإما أن تكون مبالغاً فيها بعض الشيء.

المصادر العربية الإسلامية القديمة قدرت عدد العرب الذين جاؤوا من اليمن ومن الحجاز للمشاركة في فتح بلاد الشام بحوالي ٤٠٠٠٠ – ٥٠٠٠٠ مقاتل، وقد رافق هؤلاء عدد من النساء والأطفال لم تفصح المصادر عن عددهم .وبعد عملية الفتوحات استمر سيل الهجرة من بلاد العرب الى بلاد الشام طيلة فترة الخلفاء الراشدين والأمويين. يمكن تلخيص اسباب هذه الهجرة بسببين رئيسيين :أولهما أن بلاد الشام اضحت مركز الدولة الإسلامية مترامية الأطراف، وعليه فإن أموال الغنائم والضرائب قد وجدت طريقها في نهاية المطاف الى هذا البلد الذي أصبح أكثر ولايات الخلافة ازدهارا . ثانيا : اعتمد الأمويون في حكمهم خاصة في المجالات الإدارية والعسكرية على العناصر العربية، الأمر الذي خلق طلبا عاليا في هذه المنطقة على موظفين وجنود من أصول عربية (خليل عثامنة ٢٢ – ٦٧).

المعلومات أعلاه تشير الى أن عدد العرب الذين هاجروا الى بلاد الشام، لا بد انه كان كبيرا جدا، ولكن علينا أن نتذكر بأن الغالبية الساحقة من هؤلاء لم يستقروا بشكل دائم في فلسطين أو حتى في بلاد الشام .فبلاد الشام كانت المر الوحيد للجيوش العربية الإسلامية الى شمال إفريقيا والأندلس، وإلى المناطق الحدودية مع الدولة البيزنطية ومنطقة جبال القفقاس (جورجيا وأرمينيا وأذربيجان). فالجيوش العربية الشامية هي التي فتحت مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب والأندلس، وهي التي حاربت لسنين طويلة على الجبهة البيزنطية، وشاركت بشكل

محدود في الفتوحات الأموية التي تمت في أواسط اسيا .وبعد الانتهاء من الفتوحات ألقي على عاتق الجيش الشامي إرساء دعائم الأمن واخماد عشرات إن لم يكن مئات الثورات التي اندلعت في البلاد التي كانت تخضع للدولة الأموية، خصوصا في العراق وشمال افريقيا والأندلس وخراسان ومنطقة ما وراء النهر (خوارزم وغيرها من الولايات الشرقية). إنه غني عن القول أن الغالبية العظمى من العسكر الذين أرسلوا الى المناطق البعيدة لم يعودوا قط لا الى بلاد الشام ولا الى شبه الجزيرة العربية، لأن بعضهم سقط في المعارك والبعض الآخر استقر في البلاد التي أرسلوا اليها .ومثال على استقرار جنود الشام في المناطق التي أرسل اليها نذكر هؤلاء الذين أرسلوا لإخماد ثورة في الأندلس وتم توطين جنود جند فلسطين في مدينة شذونه وجنود جند الأردن (الجليل) وفي مدينة ريه (محسن يوسف، ص٣٥) بناء على هذه المعطيات فإنه من المستحيل أن يكون عدد العرب الذين استقروا في بلاد الشام كبيرا أو حتى قارب ربع مليون شخص كما ادعى برنارد لويس.

إذا قبلنا بتقدير برنارد لويس بأن عدد العرب الذين استقروا في بلاد الشام في نهاية الفترة الأموية كان ربع مليون تقريبا فماذا كان نصيب فلسطين من هذا العدد ؟ في الحقيقة لا توجد لدينا أية اشارة عددية ذات علاقة بهذا الموضوع، لذلك علينا أن نفترض أن نسبة نصيب فلسطين من هؤلاء العرب تعادل نسبة مساحة ونسبة عدد سكان فلسطين مقارنة بمساحة وعدد سكان كل بلاد الشام، وهذه النسبة تقارب الخمس .بمعنى آخر أن عدد العرب الذين استقروا في فلسطين خلال القرن الأول من التاريخ الإسلامي ربما كان حوالي ٥٠٠٠ شخص .وفيما يتعلق بعدد سكان فلسطين في تلك الفترة فقدره المؤرخون بحوالي٤٠٠٠٠ – ٥٠٠٠٠٠– شخص .بكلمات أخرى إن نسبة العرب الذين استقروا في فلسطين الى مجموع سكانها قارب ١٠ – ١٢ بالمئة.

بعد انهيار الدولة الأموية بقيت حدود فلسطين مفتوحة لهجرة السكان منها واليها كما كان عليه الوضع منذ آلاف السنين، فجاءت تلك التحركات البشرية طبيعية وفي غالب الأحيان بشكل أفراد وبأعداد قليلة، خاصة أن بلاد الشام وبضمنها فلسطين لم تعد مركز جذب للسكان، لأنها خسرت مركز الصدارة في الدولة الإسلامية، وأصبحت مجرد ولاية صغيرة من ولايات الدولة العباسية .وهنا تجدر الإشارة الى أن المهاجرين الذين هاجروا الى فلسطين لم يكونوا جميعا من المسلمين، وإنما وجدت نسبة كبيرة منهم تنتمي الى الديانة المسيحية والديانة اليهودية خصوصا فرقة القرائين اليهود الذين هاجروا للقدس وغيرها من المدن الفلسطينية من العراق وإيران، حتى أصبحت نسبة القرّائين عشية الاحتلال الصليبي لفلسطين العام ١٠٩٩ م تعادل نصف عدد اليهود (محسن يوسف، ص٢٥ – ٢٨). ومع أن عدد المهاجرين المسلمين الى فلسطين كان محدودا، إلا أن نسبة المسلمين لمجموع السكان عشية الاحتلال الصليبي قد قاربت ٨٠ بالمئة من السكان (محسن يوسف، ص٤١)، والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف أصبحت غالبية السكان مسلمين دون هجرة إسلامية الى المنطقة ؟ .والجواب على هذا السؤال يكمن في أسلمة السكان اليهود والنصارى المحليين.

للاحتلال الصليبي كان أثر كبير نسبيا على التركيبة الإثنية في فلسطين لفترة من الزمن، وقد تمثل ذلك في ثلاثة عوامل اساسية وهي:

١ – أن الصليبيين قتلوا عشرات آلاف المسلمين وربما زاد عدد القتلى عن ١٠٠٠٠٠ شخص .لقد قدرت المصادر عدد القتلى في مدينة القدس وحدها بين ٢٠٠٠٠ و ٧٠٠٠٠ شخص .علما أنه تم تفريغ كل المدن الفلسطينية من سكانها المسلمين، إما قتلا أو تهجيرا وعلى وجه الخصوص قتلا.

٢ – لقد صاحب عملية الاحتلال عمليات هِجرة وتهجير للمسلمين. جزء كبير ممن هاجر أو هُجّر انتقل الى دمشق وبلاد الشام ومصر، والجزء الآخر، وعلى ما يظهر الغالبية العظمى منهم, هاجروا من المدن الى القرى الفلسطينية المجاورة.

٣ – لقد صاحب الحملات الصليبية العسكرية التي كانت تعد بالعشرات أعداد كبيرة جدا من العسكريين والمدنيين الأوروبيين .فقدر على سبيل المثال لا الحصر عدد الجنود الذي شاركوا بالحملة الصليبية الثالثة التي قادها ملوك المانيا وفرنسا وانكلترا باكثر من ٣٠٠٠٠٠ جندي .ولكن علينا أن نتنبه الى حقيقة مهمة، وهي أن الغالبية الساحقة من الصليبيين الذين شاركوا في الحملات لم يستقروا في نهاية المطاف في فلسطين، والأسباب لذلك هي :أ –أن نسبة من كان يموت في الطريق من بينهم أو من كان يقتل بالمعارك أثناء الحملات كانت عالية جدا ربما فاقت في غالب الأحيان – ٧٥ بالمئة .وأن نسبة عالية ممن استقر في البلاد قتل أثناء مئات المعارك التي كانت تنشب بين الصليبيين وبين المسلمين مثل معركة حطين، والمعارك التي كانت تنشب بين

بعضهم البعض، هذا ناهيك عن الأعداد الكبيرة منهم ممن كان يسقط أسيرا ويباع في أسواق النخاسة في المدن العربية والإسلامية مثل بغداد والقاهرة وإصفهان .ب -هناك نسبة لا بأس بها ممن شاركوا في الحملات الصليبية عادوا الى بلادهم بعد انتهاء الحملات ولم يستقروا في فلسطين.

هناك دلائل وأبحاث تاريخية كثيرة تشير إلى أن الغالبية الساحقة من سكان الريف الفلسطيني خلال الفترة الصليبية كانوا من المسلمين، وأن عدد الأوروبيين (الصليبيين) الذين سكنوا في الريف كان محدودا جدا، بل كان شبه معدوم .وفي نهاية الحقبة الصليبية أصبحنا نجد أعدادا لا بأس بها من المسلمين يسكنون في المدن الصليبية .ومما يجب الإشارة اليه أن عملية تحرير فلسطين من الصليبيين قد تمت ببطء، وفي غالب الاحيان كان الصليبيون يخرجون أو يسمح لهم بالخروج من المناطق التي يتم تحريرها ليعودوا الى أوروبا أو أن يتجمعوا فيما تبقى لهم من مناطق ومدن .وقد استمرت هذه الظاهرة حتى تم القضاء عليهم وطرد آخر جنودهم من فلسطين العام ١٢٩١ (محمود عمران، ص١٣٣ , ٣٤٠). بكلمات أخرى إن تأثير العناصر الصليبية - الأوروبية على التركيبة الإثنية لسكان فلسطين كانت محدودة من ناحية زمنية (الفترة الصليبية فقط) وكاد أن ينتهي بانتهاء الوجود الصليبي خصوصا أن ظاهرة التزاوج بين الصليبيين والمسلمين وتنصر المسلمين وأسلمة الصليبيين المسيحيين كانت محدودة للغاية .باختصار شديد إن تأثير الحملات الصليبية على التركيبة الإثنية لسكان فلسطين لم يكن أكثر من الاحتلالات الأخرى، كما يتبادر للذهن لأول وهلة، بل ربما كان أقل من غيره من الاحتلالات.

فيما يتعلق بالفترات التي أعقبت الحقبة الصليبية فقد تخللتها حروب وثورات وهجرات من وإلى فلسطين، إلا أن تأثيرها على التركيبة الإثنية للسكان كان محدودا .وكما هو الحال في فترات سابقة، فإن من سكن فلسطين من الأجانب أمثال الأكراد الذين رافقوا فتوحات الأيوبيين والتركمان والبشناق والشركس وبعض القبائل العربية الذين استوطنوا فلسطين خلال العهد العثماني قد تأقلموا مع سكانها العرب المسلمين وذابوا بهم.

الحدث الأهم فيما يتعلق بالتأثير على التركيبة الإثنية لسكان فلسطين في كل التاريخ الفلسطيني منذ فجر التاريخ وحتى الوقت الحاضر، هو الهجرة اليهودية لفلسطين في القرن العشرين وتهجير جزء كبير من سكانها الأصليين الفلسطينيين الى خارجها .فقد هاجر اليها خلال القرن الأخير أكثر من ٣,٣٣٥,٠٠٠ يهودي من أوروبا ودول العالم، وقد أصبح الآن عددهم مع ابنائهم حوالي خمسة ملايين شخص (محسن يوسف، «قضايا اسرائيلية»، عدد ٢، ص ٤٤ - ٤٦). أما عدد الفلسطينيين الذين هجروا منها عند إنشاء دولة اسرائيل العام ١٩٤٨ فقد بلغ حوالي ٨٠٠,٠٠٠ شخص، وبعد نصف قرن من تهجيرهم بلغ عددهم مع ابنائهم اكثر من اربعة ملايين شخص .بمعنى آخر ان المشروع الصهيوني قد تسبب بجعل حوالي ٦٠ بالمئة من سكان فلسطين أجانب، أتوا اليها من الخارج، وأكثر من نصف سكانها الفلسطينيين لاجئين مشتتين في العالم خارج وطنهم.

خاتمة

نستنتج من المسح التاريخي السريع للفترة التاريخية الطويلة الممتدة من العام ٢٠٠٠ ق م .وحتى العام ٢٠٠٠ م . ثلاثة أمور رئيسية وهي:

١ - لقد وُصفت أعمال الآشوريين العام ٧٢٢ ق م .والبابليين العام ٥٨٦ ق م .والرومان العام ٧٠ م .المتعلقة بتهجير (سبي) سكان يهودا أو فلسطين (الذين كانوا يهودا) الى خارج البلاد، من قبل التوراة والمؤرخين اليهود والإسرائيليين، بأنها أعمال فظيعة جدا، قليلا ما عانى مثلها شعب آخر في التاريخ البشري .ولكن المسح التاريخي السريع أعلاه أثبت أن للأعمال الوحشية تلك كان تأثير محدود على التركيبة الإثنية لسكان فلسطين . وإذا ما قارنا تأثير تلك الحوادث بما أصاب شعب فلسطين من خلخلة فظيعة بتركيبته الإثنية خلال القرن العشرين لوجدناها بسيطة جدا، حتى انها لا تكاد تذكر .حتى الأعمال الصليبية التي اتسمت بالعنف الشديد لم تحدث الا تغييرا بسيطا جدا في التركيبة الإثنية مقارنة بما حدث خلال القرن العشرين .وفيما يتعلق بالفتح العربي الإسلامي، الذي أعقبه تغيير كبير في ديانة ولغة السكان المحليين فإنه أيضا لم يحدث الا تغييرا إثنيا بسيطا مقارنة بما أحدثه المشروع الصهيوني.

٢ - من الخطأ الإدعاء بأن الفلسطينيين العرب المسلمين الحاليين هم من سلالة العرب المسلمين الذين قاموا بالفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي واستقروا بفلسطين في تلك الفترة فقط، وإنما هم الكنعانيون القدامى الذين اختلط دمهم بكل الشعوب التي احتلت أو هاجرت واستقرت بفلسطين بشكل أفراد وجماعات .بكلمات اخرى إن اصل الفلسطينيين يعود الى الكنعانيين (أو الشعوب التي سكنت

فلسطين قبل الكنعانيين ولا نعرف اسمهم) الذين اختلط دمهم بالمصريين القدامى والإسرائيليين (إذا اعتبرنا أن الإسرائيليين هم شعب يختلف عن الكنعانيين) والآشوريين والبابليين والفرس واليونانيين والرومان والعرب والأوروبيين (الصليبيين) والمغول والبربر والأتراك والبشناق والشركس والألبان والسودانيين، الى جانب كثير من الشعوب التي هاجر أفراد منها واستقروا بفلسطين عند مرورهم بهذا البلد بهدف الزيارة أو التجارة وغيرها من أسباب .هذا الشعب الذي لا تختلف خلطته العرقية عن غالبية شعوب العالم قد غيّر دينه ولغته مرات عديدة تبعا للظروف الموضوعية التي كانت تسود في المنطقة .ففي الفترة الكنعانية كان هذا الشعب يتكلم اللغة الكنعانية ويعبد آلهة متعددة مثل : إل وبعل ودغون ورشف وعنات أو عشتار .وخلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد تكلم اللغة العبرية (التي هي أصلا لغة أو على الأقل لهجة كنعانية) واتبع الديانة اليهودية .في منتصف الألف الأول قبل الميلاد سادت اللغة الآرامية كل منطقة بلاد الشام وبضمنها فلسطين حتى أنها اصبحت لغة اليهود .في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد صارعت الديانة اليهودية ديانة اليونان والرومان وصارعت اللغة الآرامية اللغات اليونانية والرومانية .وخلال القرون الستة الأولى من الألف الأول الميلادي أخذ اليهود وابناء الديانات الأخرى يتخلون عن دياناتهم ويتنصرون .وبعد الفتح الإسلامي اخذ السكان المسيحيون واليهود والسامريون يتخلون عن دياناتهم لاتباع الديانة الإسلامية، وفي نفس الوقت أخذوا بالتخلي عن لغتهم الآرامية -السريانية لصالح اللغة العربية.

٣ – لقد تبين من البندين السابقين استحالة معرفة الأصول العرقية الدقيقة للفلسطينيين .كذلك الحال يستحيل علينا معرفة الأصول العرقية الدقيقة لليهود الحاليين الذين هاجروا الى فلسطين خلال القرن الماضي .ومن مسببات هذه الاستحالة نذكر :أ - حدوث حالات تهود جماعية عديدة في التاريخ، نذكر منها حالة تهود شعب الخزر (شمال بحر قزوين - في روسيا اليوم) في القرن التاسع ميلادي، وحالة التهود التي حدثت في اليمن في فترة حكم الملك يوسف ذو نواس .ب - هناك شواهد تاريخية كثيرة تشير الى تهود أفراد في جميع الدول الأوروبية وكثير من الدول الآسيوية وغيرها من دول العالم .ج - في نفس الوقت حدثت حالات تنصر وأسلمة واتباع ديانات أخرى كثيرة من قبل اليهود.

والسؤال المطروح هو :مَن يمثل من الناحية العرقية الإثنية كل الشعوب والأجناس التي استقرت في فلسطين على مر الأجيال والسنين، وبضمنهم اليهود والإسرائيليون القدامى أكثر، الفلسطينيون الحاليون أم اليهود المعاصرون ؟ والجواب القاطع هو أن الفلسطينيين هم الذين يمثلون تلك الشعوب عرقيا وحضاريا.

المراجع:

دائرة المعارف العبرية العامة؛ يهودية وأرض اسرائيل. المجلد السادس؛ «أرض اسرائيل». القدس، شركة نشر دوائر المعارف، ١٩٩٣. (بالعبرية).

السواح، فراس. آرام دمشق واسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي. دمشق: دار علاء الدين، ١٩٩٥.

شوفاني، الياس. الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ وحتى سنة ١٩٤٩). بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٦.

عثامنة، خليل. فلسطين في خمسة قرون؛ من الفتح الإسلامي حتى الغزو الصليبي ٦٣٤ – ١٠٩٩. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٠.

عمران، محمود سعيد. تاريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥ – ١٢٩١. دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦.

المسيري، عبد الوهاب. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية؛ نموذج تفسيري جديد. دار الشروق، ١٩٩٨. الجزء الرابع.

الموسوعة الفلسطينية. تحرير أحمد المرعشلي وعبد الهادي هاشم؛ القسم العام، دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤ المجلد الثالث.

الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، المجلد الثاني؛ الدراسات التاريخية. بيروت: ١٩٩٠.

نعناعة، محمود. تاريخ اليهود. دار الفكر للطباعة والنشر، ٢٠٠١.

يوسف، محسن. «الخارطة الدينية لسكان فلسطين عشية الاحتلال الصليبي». آفاق فلسطينية؛ مجلة أبحاث جامعة بيرزيت، العدد ٧، ١٩٩٣. ص٢٤ – ٤٧.

يوسف، محسن. قراءة في الخارطة السكانية لإسرائيل. قضايا اسرائيلية، العدد الثاني ٢٠٠١. ص٤٢ – ٥٣.

Encyclopaedia Judaica. Jerusalem; Keter publishing house, 1972. Lewis, Bernard. The Arabs in History. New York; Harper & Row, 1966. Meyers, Eric M. (editor). The Oxford Encyclopaedia of Archaeology in the Near East. Oxford; Oxford University Press, 1997.